الكتب

المتنبي مع طه حسين

للدكتور محمد عوض محمد

إن الذين يطالعون الكتاب الذى بين أيدينا على أنه كتاب لطه حسين فى المتنبي سيخطئون القصد ويفوتون على أنفسهم اللذة الحقيقية والمتعة العظيمة التى يستطيعون أن ينالوها من مطالعة هذا الكتاب على الوجه الصحيح : أى على أنه كتاب أدبى أو قصة أدبية شائقة لها بطلان المتنبي وطه حسين معاً . فليس الكتاب بحثاً تاريخياً جافا ، أو نقداً موضوعياً ، بل قصة ممتعة تشترك فيها شخصية المؤلف الأديب وشخصية المتنبي المدهشة ... ولهذا يجمل بنا أن ندعو الكتاب طه حسين مع المتنبي ، أو المتنبي مع طه حسين ؛ كما ينادون فى بعض المطاعم على الأصناف اللذيذة بأن يقولوا فراخ مع الأرز ، أو كوارع مع الفتة ...

فالكتاب الذى نحن فى حديثه الآن اسمه الصحيح إذن هو المتنبي مع طه حسين . . . .

والمتنبي مع طه حسين مظلوم ! . . فقد كان طه حسين معرضاً عنه إعراضاً تاماً ؛ وظل معرضاً عنه زمناً كدنا ألا نعرف له آخرا . . وقد قرر طه حسين أن يعرض عن المتنبي كل هذا الاعراض ، منذ ان كان يطلب العلم فى الأزهر الشريف . ثم لم يزل معرضاً عنه ممعنا فى الاعراض . لا يستمع لصوته القوى ، ولا يستجيب لندائه العذب . وهو يستعين على هذا الاعراض بضروب من الوسائل ؛ فجعل يضع القطن الغليظ فى أذنيه ، ويقيم الحجب والجدران بينه وبينه ، ويقول له : ابعد عنى ! لا أريد أن أصغى إليك . . .

وهكذا ظل المتنبي يهيب بالأديب الكبير ، والأديب الكبير ليس له ـ كما تقول العامة ـ سوى أذن من طين وأذن من عجين

ولكن لم كل هذا الاعراض ، أو التجنى ، أو التمنع ؟

سيقول لك خلطاؤه الذين لا ينظرون إلا إلى ظاهر الأمور إن إعراض طه حسين يرجع إلى الخصومات التى تنشأ بين الطلبة ، وتذهب بهم فى التشيع الأدبى مذاهب مدهشة ، فكان يكفى أن ينادى زيد بأن الطائى شاعر كبير ، لكى يخاصمه فى ذلك عمرو وبكر وخالد ؛ وكان يكفى أن يشتد إعجاب بكر بشعر المتنبي ويسرف فى مدحه ، حتى يتألف عليه الآخرون ، ويقاطعوا المتنبي المسكين من غير جريرة ولا ذنب أقول إن هذا ما يزعمه الزاعمون . وقد يكون هذا ما يزعم طه حسين نفسه إذا سألته عن سبب إعراضه الطويل . ولكن الحقيقة أعمق وأبعد غوراً من هذا كله : وقد خفيت حتى على المؤلف نفسه . ذلك أن طه حسين كان يحس ـ إحساساً مبعثه الالهام الذى لا حول له فيه ولا قوة ـ أن شعر المتنبي متعة هائلة أولى به أن يدخرها ، وأن يؤجل التمتع بها كما يترك المرء أطيب الثمار إلى آخر الوجبة ، بادئاً بالفج الثقيل منها . قال لى بعض الناس مرة : هل رأيت إيقوسيا ؟ قلت : لا ! قال فانى أحسدك على هذا أشد الحسد . إنى لأعطى كل ما عندى لكى أرى إيقوسيا للمرة الأولى !

ومن هذا الجامد البخيل الذى لا يعطى كل ما عنده لكى يدرس شعر المتنبي للمرة الأولى ؟

ذلك هو السبب الحقيق لهذا الاعراض الطويل ؛ وكان لا بد لصاحبه إذا سأله لماذا لا تعنى بدراسة المتنبي أن يجيبك بأعذار ينتحلها انتحالا ، وإذا هو يصطنع خصومة بينه وبينه ، وقد ينتهى به الأمر إلى تصديق هذه الأعذار والايمان بأن تلك الخصومة المفتعلة تقوم على أساس أو شبه أساس .

إلى أن جاء الوقت ، واستطاع المتنبي أن يرغم طه حسين على أن يسهر مع الساهرين من أجل شوارد شعره التى كان ينام عنها هو ملء جفنه . وأن يكب على دراسة المتنبي انكبابا عجيبا ، وأن يقيم للمتنبي أسبوعا كان من أجل وأروع أسابيع الجامعة المصرية ، وأن يصطحب المتنبي معه إلى أوربا ، وأن ينزله معه فى الباخرة وفى القاطرات وفى مختلف الفنادق والديار ! !

وهكذا اضطر طه حسين إلى أن يرى نفسه ـ على كره منه كما يقول ـ منصرفا إلى دراسة المتنبي ، وأن يبادر إلى المتعة التى ادخرها لنفسه هذا الدهر الطويل ، وأن يساط على هذه الدراسة ما وهبه الله من ذكاء خصب ، واطلاع واسع ، وملاحظة دقيقة ، وقدرة على استنباط الحقائق من أيسر المعلومات التى يمر بها الناس مرا دون أن يروها . . ثم استطاع بعد ذلك أن يصور لنا المتنبي ، فاذا نحن نحسه وإذا نحن نلمسه ، وإذا نحن نراه ماثلا أمامنا ، وإذا نحن نسير وإياه جنبا إلى جنب ، وإذا شخصية المتنبي تبرز لنا من وسط هذه الصفحات بروزا غير محاط بلبس ولا إبهام

وطه حسين الذى أبدع هذه الصورة يقول لنا مع إنه ليس من

المعجبين بالمتنبي ، المشغوفين بشخصه وفنه ، ولكنه لحسن الحظ لا يطلب منا أن نصدق كلامه هذا بل يقول لنا إننا مخيرون فى أن نرى أن هذا الكلام يصدر عن تفكير أو هذيان أو شذوذ وجموح (ص ٧٠) . . وأنا أفضل الرأى الأخير . . ومن الممكن للمصور البارع الذى أبدع الصورة وجلاها للناظرين أن يزعم أنه لا يحب صاحب هذه الصورة ولكنه لم يجد بين الناس من يصدقه

ليقل طه حسين إذن فى علاقته الشخصية بالمتنبي ما يشاء . فإن القراء قد ظفروا منه على كل حال بكتاب يمتلىء حياة وقوة . ليس المتنبي فيه اسما يذكر وأشعارا تتلى وجدالا يسرد ، بل شخصا حيا يسعى ويعمل ، ويحس ويشعر ، ونحن نشاركه كل هذه الحياة . واستطعنا بسبب هذا كله أن نزداد حبا للمتنبي وعطفا عليه . وهى نتيجة لم يكن المؤلف يريدها أو يفكر فيها . كذلك استطعنا أن نعجب بالمؤلف حين ينصف المتنبي ، ويبرز الحق من أركان هذه الحياة الثائرة العجيبة . واستطعنا أيضا أن ننظر شزرا حين نرى المؤلف يحمل على المتنبي حملات أقل ما يقال عنها إنها لا تتفق مع ما يذكره المؤلف نفسه عن المتنبي حين يتناسى ما بينهما من الحزازات القديمة

ليس من الممكن هنا أن نعدد محاسن هذا الكتاب الذى قلما خدم شاعر فى العربية كما خدم به أبو الطيب . وسيرى القارىء من غير مشقة كيف استطاع المؤلف أن يزيد لذتنا ومتعتنا بأشعار المتنبي أضعافا مضاعفة . فقصيدة مثل «وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه» ونحوها . أصبحنا بعد أن صورت لنا حياة المتنبي والظروف المعقدة التى أنشدت فيها تلك القصائد - نرى فيها حياة وقوة وعمقا لم نكن نحس له وجودا

ومع هذا - وبعد هذا كله - فالمتنبي مع طه حسين مظلوم . لأن طه حسين لم يستطع دائما أن ينسى ما بينه وبين المتنبي من خصام ، بل يتذكر هذا الخصام أحيانا فيعود إلى ظلم المتنبي ، ويمعن فى التشنيع عليه . أنظر إليه حين يريد ان يوهمنا بأن المتنبي مداح كسائر المداحين وأنه ينكر نفسه كلما اقتضت منه المنفعة العاجلة إنكارها . ويريد منا أن نصدق هذا ، وهو نفسه الذى يرينا فى صراحة وجلاء كيف أعرض المتنبي عن مدح اسحق بن كيغلغ ولم يعبأ بتهديده ووعيده . مع أن المنفعة العاجلة كانت تقضى من غير شك بانكار النفس وبذل المدح

ونحن نرى المتنبي لا يكتفى بهذا بل يهجوه هجاء مرا ، ذلك لأن المتنبي كان غاضبا من هذا الرجل الذى أبى أن يقبل منه المدح فيما مضى ، فجازاه المتنبي على إعراضه بأن أعرض عنه يوم أضحى شاعرا مشهورا .

هذا كله لا يمكن أن يذكر للمتنبي إلا بالخير . فانظر كيف يصور لنا المؤلف هذا الحادث : « فلا تسل عن كبرياء الشاعر وما امتلأت به نفسه من الزهو والغرور ، وإذا هو يمتنع على الأمير ويأبى أن يجيبه إلى المدح الذى رغبه فيه ، ويحتال الأمير فى ذلك فلا يوفق . وتشق عليه هذه الاهانة فيمسك الشاعر فى طرابلس ، ولا يخلى بينه وبين السفر ، وإنما يمسكه سجيناً كالطليق ، وطليقا كالسجين »

والمنطق السليم يقضى بأن مسلك أبى الطيب هذا ينطوى على كثير من العزة والشمم . ولا يدل مطلقا على أنه يطلب العاجلة ، فينكر نفسه . ولا بد للنصف أن يرى أن عبارة المؤلف فى وصف ذلك الحادث قاصرة لم يملها الانصاف ، بل إن للحزازات القديمة أثراً فيها

وفى حياة أبى الطيب أمثلة من الوفاء والاخلاص ، استطاع المؤلف أن يحولها إلى أمثلة من التزلف والخوف . انظر مثلا إلى الحادث الشهير يوم أن غضب أبو العشائر على أبى الطيب وأرسل غلمانه وراءه فرماه أحدهم بسهم وقال خذه وأنا غلام أبى العشائر . فأنشد أبو الطيب هذه الأبيات العجيبة الساحرة :

ومنتسب عندى إلى من أحبه ... وللنبل حولى من يديه حفيف
فهيج من شوق وما من مذلة ... حننت ولكن الكريم ألوف
وكل وداد لا يدوم على الأذى ... دوام ودادى للحسين ضعيف
فان يكن الفعل الذى ساء واحداً ... فأفعاله اللائى سررن ألوف
ونفسى له - نفسى الفداء لنفسه - ... ولكن بعض المالكين عنيف
فان كان يبغى قتلها يك قاتلا ... بكفيه فالقتل الشريف شريف

وليس هنا مجال لسرد الحادث كله ، ولكن العجيب أن سرد المؤلف له يضع الذنب كله على المتنبي ، لأنه أهمل مدح أبى العشائر وكأنه يلتمس العذر لهذا الرجل فى غدره بأبى الطيب

لقد قرر المؤلف فى نوبة من نوبات الظلم التى كانت تعاوده وهو يملى أكثر كتابه هذا : أن المتنبي « عبد للطمع والمال ، لا للجمال والفن . » ولم يجد من الحوادث والاشعار مساعداً له على تأييد هذا الرأى ، فاضطر إلى أن يصبغ الحوادث بالصبغة التى تتفق مع هذا الظلم ، وأن يلتمس للشعر الخالص البرىء أسباباً غير خالصة ولا بريئة

وقد وجد الأستاذ المؤلف نفسه فى مأزق حرج أمام قصيد

المتنبي الشهيرة ، واحر قلباه ممن قلبه شبم ، فقد رأى المؤلف أنها قصيدة لا يمكن أن تصدر عن رجل خلقه الأساسي أنه عبد للطمع والمال لا للجمال والفن . فماذا يفعل بهذه القصيدة التي إن دلت على شيء فانها تدل على أن المتنبي رجل خلقه الأساسي الشمم والاباء . لم يكن للمؤلف بد من أن يمر بهذه القصيدة مراً ، وأن يختصر الكلام عنها ، وعن الحادث الذي تدل عليه اختصاراً . وأن يعتذر عن ذلك بأن الناس قالوا فيها فأكثروا . . أما ما اشتملت عليه القصيدة من الفن الهائل فانه لايظفر من المؤلف إلا بالعبارة الآتية : نلاحظ مسرعين أن المتنبي قد وفق فيها إلى حظ لا بأس به (كذا) من الاجادة الفنية . . سلك طريق ابن الرومي فألح في العتاب حتى كاد يبلغ الهجاء . وأسرف في المدح ليصلح ما أفسده بالعتاب . »

هذا كل مايقوله عن هذه القصيدة هذا المؤلف العجيب الذي يخصص ست صفحات من كتابه لقصيدة « كفرندي فرند سيفي الجراز »

ونحن نلاحظ هنا أمراً مدهشاً قد ساق المؤلف إليه إصراره على تجاهل هذه القصيدة . .

ولنمر أولا - مر الكرام ، على قوله إن بها حظا لابأس به من الأجادة الفنية ، ولكننا نقف قليلا عند قوله إن المتنبي أسرف في المدح ليصلح ما أفسده بالعتاب »

إن أقل إلمام بهذه القصيدة يرينا أن ما اشتملت عليه من المدح ليس من النوع الذي يوصف بالاسراف . ومهما يكن من شيء فان هذا المدح مقدم في أول القصيدة ، لا لإصلاح ما أفسده العتاب ، بل توطئة للعتاب القاسي واللوم المر ؛ والقصيدة تزداد شدة وعنفا كلما اقتربنا من النهاية ؛ حتى تنتهي فعلا بتهديد سيف الدولة بالانصراف عنه والرحيل من دياره

وهذه القصيدة تدل على براعة فنية هائلة ، وعلى خلق متين وعر . ولذلك لاتتفق مع الدعوى بان المتنبي عبد للطمع والمال ، ذليل للملك والسلطان ، ولذلك تجاهلها المؤلف ومر بها مرا سريعاً . . .

* * *

وبعد فليست بي حاجة لأن أدلي بأمثلة أخرى يظهر فيها مابين المؤلف والمتنبي من خصومة قديمة . . ففيما ذكرناه كفاية لأن يرى القارىء أن المتنبي مع طه حسين مظلوم . ولكن من العدل أن نقرر أن طه حسين كثيراً ماكان ينسى هذه الخصومة . والكتاب ممتلىء بقطع عديدة ، استطاع المتنبي أن يثأر بها لنفسه ، وأن ينال من المؤلف كل انصاف وتقدير بالرغم منه

والمواقف الظالمة التي وقفها المؤلف من الشاعر هي من الوضوح والظهور بحيث لن يخطئها القارىء ؛ ونحن لانشك في أنها البقية الباقية من أيام العهد القديم حين كان بعضنا يتعصب للمتنبي وبعضنا يتعصب عليه ، وكان طه حسين دائما من الفريق الثاني . .

ولكننا برغم هذا التحامل - بل لسبب هذا التحامل - سنجد في مطالعة هذه الفصول متعة شائقة ، بحيث لايمكن أن نتناول الكتاب ثم نلقيه قبل أن نفرغ منه

يجب أن نطالع هذا الكتاب لا على أنه تاريخ أو نقد ، بل على أنه قطعة أدبية فنية ، تمثل صورة وتقص قصة . ولك أن تطالعه إذا شئت على أنه كتاب لطه حسين عن المتنبي . ولكنك بهذا ستضيع على نفسك لذة عظيمة ومتعة فائقة . فالوجه الصحيح للتمتع بهذا الكتاب هو أن تقرأه على حقيقته التي كشفت لك عنها في أول هذا المقال . فالموضوع الصحيح هو المتنبي مع طه حسين . أو إذا شئت اسطلاحا حسابيا فقل : « المتنبي مضروبا في طه حسين » فالكتاب هو حاصل هذا الضرب

وبهذا الاعتبار أو ذاك ستجد في مطالعة الكتاب لذة جديدة لم تكن تتاح لك من قبل : ولو كان في هذا الزمان إنصاف لشكرني الناس على الكشف الذي كشفت والهدى الذي هديت . ولكنا في زمن كما يقول صاحبنا :

إنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

* * *

والآن فبالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن عشاق المتنبي أسجل هنا ما أحرزناه من النصر بانضمام عدو عنيد إلى صفوفنا ؟

محمد عوض محمد

مرض البول السكري

نصيحة من مريض (لله تعالى) إلى المرضى

مرضت بالبول السكري وبالتجائي الى كل الطرق لم أستفد سوى استفادة مؤقتة تزول بزوال العلاج إلى أن وفقني الله تعالى إلى بعض أنواع عشب للنباتات ثم أجرها الاجل وظيفة محمد طاهر الصاوي بوكالة أبو زعبل بالخرداوي بمصر تليفون ٥٢٥٢٠ ولم يكلفني ثمنها سوى سبع عشرة قرشا صاغ . وباستعمالها مدة أربعة أسابيع كانت النتيجة مرضية جدا ... فعند ظهور هذه النتيجة تخيل أن البول طبيعي بعد أن كان بنسبة ٥٥ في الألف .

لذلك أخذت على نفسي عهدا أن أنصح بها المرضى وأعتقد أن المحل المذكور لا يتأخر عن إرسالها لكل مريض خدمة للانسانية متى أرسل إليه قيمة الثمن المذكور

احمد كشك . م .